تقرير

التركمان والفلسطينيون: حب متبادل

يجاور مخيم برج البراجنة حي الأكراد الذي يقطنه جنباً إلى جنب أكراد وتركمان. العلاقة بين الفلسطينيين وسكان الحي ليست جديدة بل تعود إلى الأيام الأولى للجوء التي اقتسموا منذ بدايتها مشاكلهم الحياتية والأمنية

قاسم س. قاسم

عتبَ أبناء المخيمات على عدم زيارة رئيس الحكومة التركية رجب طيب أردوغان لمخيماتهم، أو حتى «مروره بالقرب من المخيم الأقرب للمطار»، أي مخيم برج البراجنة، كما فعل الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد. لكن عتب الفلسطينيين هو بالحقيقة على «قد المحبة»، ولو أن العتب لن يفسد في الود الفلسطيني، المؤيد للحكومة التركية الحالية، أي قضية. فبرغم عدم زيارة أردوغان للمخيمات في لبنان، إلا أن سماعهم رئيس الحكومة التركي يعلن أن تركيا لن تسكت إذا شنّت اسرائيل أي هجوم على غزة أو لبنان، أثلج قلوب اللاجئين وطمأنهم الى بقاء النجم التركي على مواقفه. هذا التضامن التركي مع الفلسطينيين انعكس على الأرض. فبالقرب من مخيم البرج، يتواصل الفلسطينيون يومياً ودائماً مع جيرانهم التركمان والأكراد الأتراك. العلاقات بين هؤلاء قديمة قدم اللجوء الفلسطيني الى منطقة برج البراجنة. إذ كانت العلاقات بين الطرفين تشهد حالات صعود وهبوط، ولم تكن المواقف التركية المتحالفة مع الدولة العبرية تؤثر تأثيراً سلبياً كبيراً، كأنها كانت «شيئاً عادياً» من دولة كانت تُعدّ غربية وبعيدة في عقولهم. بعكس التأثير الإيجابي الحالي لمواقف الحكومة التركية الحالية الداعمة للقضية الفلسطينية والمتسللة من هناك إلى قلوب العرب. هكذا، انحصرت علاقة اللاجئين الفلسطينيين والتركمان، وحتى الأكراد الذين يسكنون بالقرب من المخيم، بالهموم الحياتية المشتركة التي تؤثر بالطرفين. بالطبع لم تكن العلاقة الفلسطينية ـ التركية ـ الكردية على وئام دائم وكانت المشاكل التي تقع بين الأطراف معروفة بوصفها الأكثر دموية في المنطقة، وذلك لأن الجميع كان ينصر «ابن العم ظالماً أو مظلوماً».

ففي أحد الأزقة الملاصقة للمخيم، زقاق لا يتجاوز طوله مئتي متر. هناك، الفلسطينيون على تواصل يومي مع محيطهم التركماني الكردي، ويتبادلون المصالح دائماً، فعندما ينقطع التيار الكهربائي عن المخيم، يسحب الفلسطينيون الكهرباء من حيّ الأكراد، والعكس يحصل عندما تنقطع الكهرباء في حيّ الأكراد. هذا التعاون بين الطرفين لا ينسحب على كل شيء، اذ ثمة مشكلة في تلك المنطقة الضائعة بين الغيتوات لجهة تحديد المسؤولية الأمنيّة عنها.

في ذلك الزقاق الذي يقع بين المخيم والشارع الرئيسي لمنطقة برج البراجنة، تجري أغلب عمليات التسلم والتسليم لما طاولته السرقات. فإن سرقت إحدى الدراجات النارية، يختار السارقون أن يعيدوا بيعها لصاحبها في تلك المنطقة. لماذا؟ لأن الدولة اللبنانية ببساطة تعدّها ضمن نطاق مسؤولية مخيم برج البراجنة، أي خارج سلطتها، واللجنة الأمنية بدورها تعدّها خارج نطاق المخيم، لذلك، أقصى ما يفعله عناصر اللجنة الأمنية هو الوقوف في الأزقّة الداخلية للمخيم، لمنع السارقين من الدخول إليه. بالنسبة إلى أحد وجهاء حي الأكراد، الذي رفض الكشف عن اسمه «بسبب الجيرة والعشرة»، فإن ما يجري في الزقاق الذي يسكنه هو «نتيجة عدم دخول القوى الأمنية إلى المنطقة لأنها في الضاحية، إذ طلبنا منهم أن يأتوا مرات عدة لكنهم رفضوا ذلك طالبين منا التوجه إلى القوى المسيطرة على المنطقة، أما حزب الله فيرفض التدخل مباشرة لأن أغلب سكان الحيّ من السنّة وكي لا يتهم بأنه يضيّق عليهم، أما اللجنة الأمنية التابعة للمخيم، فلا تتدخل لأنّ الحيّ خارج حدود المخيم». أما الحل، فـ«بسهر شباب المخيم مع ولاد الحيّ ليراقبوا أي شي غريب بصير بالمنطقة».

أردوغان يجمعهم

برغم الصراع التاريخي بين التركمان والأكراد، وهم من أكراد تركيا بأغلبهم، إلا أن الطرفين يعيشان في حيّ الأكراد حالة وئام تامّ، تنسحب، بدورها، على حسن الجيرة في محيطهما الفلسطيني واللبناني. علاقاتهم مع الفلسطينيين ازدادت قوةً بعد حرب غزة وخلال مؤتمر دافوس الذي شهد «اشتباك بيريز ـ أردوغان» الشهير، وذلك عندما تجاوز الفلسطينيون والأكراد والتركمان خلافاتهم «العشائرية» التي كانت تأخذ منحىً دموياً أحياناً، لتعليق صور أردوغان في الأحياء المشتركة بينهما وفي أزقّة المخيم.

● بعدسة أهلها ●

دميتان. دميتان فقط أريد لهما أن تذكّرا بوجود ما يقارب ثمانية آلاف أسير فلسطيني في السجون الإسرائيلية. قد تتعب الدميتان مما تجسّدانه، قد تقع إحداهما، قد يفكّ أسرهما من وزارة الأسرى الفلسطينية في قطاع غزة، بعد أن تكون مهمّتهما قد انتهت وأوصلتا الفكرة، أي التذكير بما يعانيه الأسرى الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية، من دون أن ننسى الفلسطينية التابعة للسلطة في رام الله ولحماس في غزة على حد سواء. لكن ذلك لن يخرج أحد من الأسر. وبانتظار عملية التبادل المقبلة، على الأسرى الفلسطينيين أن ينتظروا. (شعيب ابو جهل)

رسائل صبابة وحنظلة

يسعد صباحك يا عكّا

للقدر أحياناً «نهفات» غريبة لا أفهمها. لا أعرف لماذا خلافاً لباقي الأيام، أكون «مصحصحة» مئة في المئة أيام العطل والآحاد بالذات. فأجدني أستيقظ قبل ديك جارنا المعروف بصوته الجعاري، وحتى بدون الحاجة إلى إبقاء منبّه هاتفي المحمول متنبهاً لإيقاظي كل خمس دقائق.

أحاول مرّة أخيرة أن أستردّ نومي، لكن عبثاً أحاول. إذ أشعر بنشاط وحيوية منقطعي النظير. أقرّر بدء يومي بكوب شاي أخضر، أمسك بكتاب كنت قد أزمعت على قراءته. أصعد إلى «السطح»، أبحث عن بقعة أنتظر فيها ريثما تُكمل الشمس استيقاظها. غير أن جارتنا العزيزة وغسيلها المنشور، إلى جانب ألواح الزينكو وأسلاك الكهرباء يحجبون عني رؤية ما بقي من السماء بسلام، لكون ابن «جارنا السابع» غريب الأطوار مهووساً بالتجسس على «العالم» من منظاره!

أقرّر الجلوس مقابل حائط علّقت عليه صورة كبيرة لشاب فلسطيني يحمل علم فلسطين كتب عليها «حق العودة لا يعلى عليه». أغمض عينيّ بارتخاء لتركيز استمتاعي بالهدوء على إيقاع غناء عصافير جارنا الشيخ.

«كيف عم نطالب بالحرية ونحنا ساجنين عصافير؟... ناديا من شان ملكوت السما حِلي عني». أطرد جميع أفكاري، أحكم إغلاق عينيّ هذه المرّة. أنا الآن في حديقة منزلي الخلفية في عكا... أستمتع بهدوء صباح عكاوي معطّر برائحة الياسمين ومريمية مقدسية نابعة من كوب الشاي، فقد عدلت رأيي عن الشاي الأخضر. «يسعد صباحك يا عكا».

على حين غرّة يقفز إلى حضني قطي. أؤنبه، ليس لأنه قطع حبل أفكاري، بل لأنّه «شرّف أخيراً»، لا أدري أين أمضى ليلته. أضعف أمام انكماشه، أعاود احتضانه «ولك شو رح تعمل بكرا بس آخدك معي على عكا... لوين بدك تروح ها؟». لن يكون هناك مشكلة حينها، عليّ أن أتأكد من ميوله الجنسية أولاً وأحضر له قطة فلسطينية «مورّة» أو قطاً ليستكشفا معاً المنطقة!

أخيراً، أشرع في قراءة الكتاب. يبدأ ابن جارنا الشاب بعادته الروتينية بكشّ الحمام. لا أملك إلا أن أشاهد إتقانه التواصل مع سرب الحمام الذي أطلقه للتوّ نحو السماء. وكيف يتحكّم في علوّ الحلقات التي يسبح فيها سربه واتجاهه والوقت الذي سيهبط فيه، بحركة من يده وصرخة من حنجرته وصافرة من شفتيه. أراقبه كيف ينتظرها جميعها لتدخل القفص، محكماً إغلاقه، كأنّه يحاول القول لن أمنحكم حرّيتكم... حتّى نحصل عليها نحن أولاً.

ناديا خير

لصباح المطر وصلاته

لي صباحات تشبه الركض في الموج، أعارك الوقتَ والوسادة وضوء النافذة، من دون أن تتمكن كل ساعات المنبه من إيقاظي من نوميّ الثقيل، ومن دون أن أبدأ نهاري المعتاد بالفوضى.

لا أطفال في الشارع، لا عصافير تنقرُ الزجاج والفُتات، ولا حتى (صباح خير) واحدة يلقيها أحد. لا شيء سوى غنائي اليتيم على الرصيف الفارغ من البسمة!

لا شيء سوى جدران الإسمنت والعمارات الكسلى، لا رائحة قهوة تتسرب من شق باب مفتوح، ولا قلب ينبض في ذلك الفراغ الهائل للشمس. ربما كنتُ أحبّ المدن الملوّنة، لكنّ حنيني لأزقة المخيم الصغيرة يُعري اغترابي المزمن في برودة الاسمنت والوجوه، فأعودُ لأوّل الدفء والذاكرة.

لحبال الغسيل، وأرجل الأطفال العارية، لأحاديث الجارات والعجائز، لبائعي الخضر والحلوى المتجولين، لراديو جدتي ونعنعها، لكتابات الجدران، لشوق أبي العبد وهو يكلم ابنه المغترب على الهاتف، فتسمع كل الحارة صوته، لقصص الحبّ الصغيرة، لقاع الدار المكشوف لليل والأحلام، لصور الشهداء، لقرقعة المطر في الأواني التي يفردها المخيّم لاستقبال طعم المطر، لآثار المقاومين والرصاص وراء الخوف والنوم، في أيام اجتياحات الجيش على الحدود، أشتاق لبياض الياسمين، لنكات السكارى في آخر الليل، للنار الشتوية التي يشعلها الصبيان من الخشب ومن قمصانهم الصيفية المهترئة، لكنزات الصوف ولأحذيتنا المبللة ببرك الماء، أشتاقُ لصباحات المخيّم، تراتيل صلاته وفظاظة شتائمه، أشتاق لتخميننا الطفوليّ لزخات المطر على أسطح الزينكو في خدر النوم الخفيف، كان يشبه صوت قلي البطاطا بالزيت، أو صوت سقوط قرص الفلافل في المقلاة، ربما كان ذلك صوت الجوع الصباحي لـ«سندويش» شهيّ في طريقنا إلى المدرسة.

أسماء شاكر ـ غزة

بعين. قال: حسناً، أتعرف محمد الفلاني؟ قلت: لا أدري. اسمه مألوف، ربما أعرفه. أو ربما أعرف أحد أقاربه. فحتى العائلة هذه كبيرة كما تعرف. قال: «هذا المحمد الفلاني من غزة، كان يعمل مرشداً للسياح. لكنه تاه منذ ستين سنة في الخارج. وكان عمره سنتين اثنتين». لم أفهم جيداً كيف حصل هذا، عمره سنتان... ومرشد سياحي؟ حاولت أن أمنطق الأمور. وحدّثت نفسي: ربما غيّروا اسمه ومزّقوا أوراقه الأصلية في السويد أو النرويج بعدما تبنّته عائلة لطيفة تعيش هناك». لكن الرجل بدا كمن يبحث عن صديق يعرفه جيداً، وسيجده يوماً. واتضح لي يقيناً أنّه سيترك لي فرصة لأبحث معه.

لا أدري ماذا كان يفعل بينما كان يحدّثني، لكن الرجل لم يكن يقصد الخروج لمحادثتي كما ظننت. كان يفعل شيئاً كأن يشرب قليلاً من الماء من خارج غرفته، ثمّ يعود إليها وهو يقول: منذ ستين سنة!